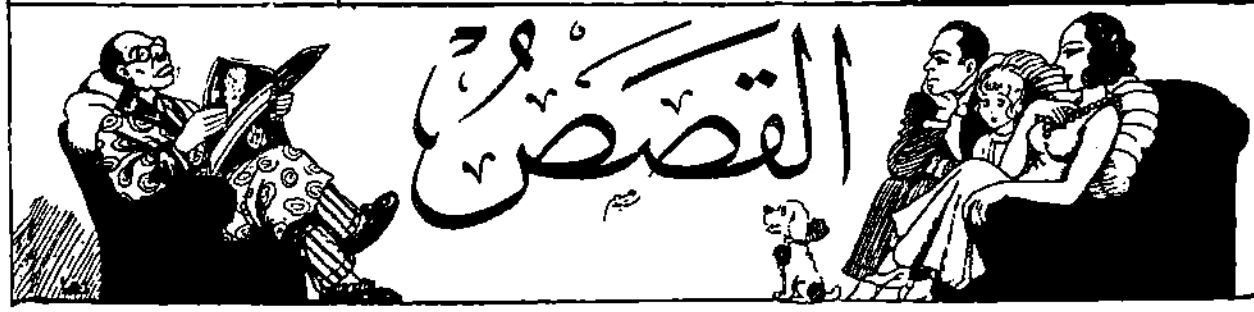




بقعة من حبر

للقصصى الفرنسى رينه بازين

UNE TACHE D'EUCRE

Reuë Bazui

للأديب أحمد المحمود

١٣٠١٢٠١١٠١٠٠٩٠٨٠٧٠٦٠٥٠٤٠٣٠٢٠١

١٤٠١٥٠١٦٠١٧٠١٨٠١٩٠٢٠٠٢١٠٢٢٠٢٣٠ هذا كل ما أستطيع أن أذكره عن الثلاث والعشرين سنة الأول من سنى حياتى ، ومجرد تعداد هذه الأرقام يكفى — يا ترى — لإظهار تشابهها المشترك وتوضيح وحدة اللون بينها .

مات أهلى ولم أعد الطفولة الأولى ، وإنى لاستحضر صورهم فى شئ من الجهد والمشقة ، وتكاد معالم البيت الذى شهد حبوى الأول تمنحى من ذا كرتى لولا أنى نشأت غريباً عنه أرنو اليه ويرنو لى ، ولكن الدار بيعت وأسفاه ١ وغاضت حياتها أبد الدهر ، أجل بيع البيت لجرى عليه حكم القدر القاسى وفى هذا المكان اكتحلت عيناى بالنور ، وفى مدرسة البلدة تصرم ثمانية عشر عاماً من عمرى وقد اعتاد المدير أن يشرح لنا معنى المدرسة وانما عائلة ثانية لها قيمتها وأثرها فى النفس حتى خيل لنا أنها تفضل الأولى بمراحل كثيرة وتسمو عليها شرفاً وقدرأ .

وما كدت أنهى دراستى الثانوية وأحمل شهادتها النهائية حتى بعث بي خالى لى باريس لدراسة الحقوق والتثقف بالثقافة العالية وفى ثلاث سنوات نلت الاجازة التى مضى عليها ثمانية عشر شهراً وهى فى يدي ، ثم ألتصمت يمين المهنة وغدت — بهذه الصفة المكتسبة على حد تعبير خالى — محامياً متمرباً وكنت كل صباح اثنين أثبت وجودى فى المكتب مع زملاء آخرين وظهر لى بذلك اننى حزت ثقة الإرملة واليتيم .

نلت اجازة الادب — فى سر ولباقة — بينما كنت أتابع

دراسى الحقوقية ، وأنا الآن أوشك أن أغدو « دكتوراً » فى الحقوق ، ولقد كانت امتحاناتى حسنة فى الجلة ، ولكنها ليست فى الدرجة التى كنت أرجوها إذ قال لى أستاذى إن الذوق الأدبى عمل فيها عمله الشديد ، وطبيعة الحقوق — يا بني — لا تمت — على عادة العلوم — إلى القلب والعاطفة بسبب من الاسباب . . . أصحح أن قلنى موزع بين الادب والحقوق ؟ ذلك ما لا أعتقد ، ولكنى لن أعترف بهذا إلى أستاذى الذى لم ينس بعد أنى نلت اجازة فى الادب . إنه يبنى على بعض الآمال ومن الطبيعى أن أنى عليه — بدورى أنا — بعض الامانى فى الفحوص المقبلة .

وماضى حياتى تختصره ورفقتان نلتها وثالثة تترأى لى عن بعيد ، وأوشك أن أنالها ، ثم خال ذرئته كبرى . والى تاريخ ١٠ ديسمبر ١٨٨٤ لم يكن ثمت حادث يذكر ولكن من يستطيع أن يضمن جمود الحياة فلا تتطور ، وهذا حادث خطير جرى لى بعد ظهر هذا اليوم فأثر فى نفسى أثره العميق وهاج من خواطرى كلما أمعنت التفكير فيه والتحليل له والوقوف عنده .

كثيراً ما كنت أذهب إلى دار « المكتبة الأهلية » للعمل فى صالة المخطوطات الخاصة التى تضم بين جدرانها الطبقة المشهورة من الكتاب والعلماء المرخص لهم بالعمل فيها ، وكنت فى كل مرة ألق بأب هذه الصالة أحسن بشعور النبطة والكبرياء لوجودى فى مكان لا يقبل إلا من كان على جانب من الشهرة وذويع الاسم . وأنخطى برهة سدة الحارس الذى اتخذ مكانه إلى رتاج الباب يستقبل الزائرين القدماء ببسمة لا تخرجه عن وقاره وهيبته عند ما يمرون به إلى مقاعدهم . ولم تكن بينى وبينه هذه المعرفة الزمنية حتى يهود على بائسامة ، ولكنه على كل حال كان يستقبلنى بانحناءة قصيرة من رأسه وقد اعتاد أن يرانى كل يوم فلا يطلب منى البطاقة كما كان يطلبها من الزائرين الجدد ونهمت أنى أصبحت فرداً من أفراد العائلة فإلى على إلا أن أجوس خلال البيت بأمن وسلام .

ما أنذا فى هذه الصالة الفخمة أسرح البصر فى اتساعها وجدورها المزينة التى تشبه فى أصباغها الجميلة الألواح الفنية الرائعة تجمعت

المشاق بعض القراءات المسلية الجذابة وأرود أمكنة المعارض والملاهي وان خالي بجهل من أمرى كل شيء. إلا أنني مدمن للكذب والموسوعات ومفرق في استنطاق أسطرها ومتونها وهوامشها وان خالي ليعجب كثيراً بأبن أخته الناشئ، هذا الراهب الناسك «البندكتي» الذي لا يفارق دور العلم وأروقة المكتبة الأهلية، في باريس، بابل الحديثة - كما يسميها - مغبناً ليلاليه وأيامه مع «غايوس» مستصحباً «لانزيه» غير عابئ بكل ما لا يمت إلى هؤلاء بصلة. وأنا أحرص كثيراً على حسن ظنه في فأرسل له دائماً بطاقات الانسحاب للكاتب ودور العلم موقعة من قيمها ومحافظها وهو دائماً يحتفظ بها حتى يتوفر لديه منها صندوق. ولقد وصلت هذا الصباح ناشطاً أكثر مني في بقية الأصباح وكأن سوء الطالع كان يرافقني للقضاء على هذا النشاط المنبعث من قراءة نفسي فسب لي بلية ما كان أشغلتني عنها وأغنانني ...

تنصب إلى جانبي سدة قيم المكتبة اريكتان تحملان أوراق الطلب وأقلام الكتابة وقادتنى خطاى إلى الأريكة النيني وباليقني لم أقصدها، اذن لكنت في نجوة عما أنا فيه الآن من أسف وندامة. أخذت الريشة المتصلة بسلسلة نحاسية وخططت بغير وضوح كثير اسم الكتاب والمؤلف الذي أتوخى مطالعته وأعدت الريشة إلى مكانها، ولكن ما أدرى والله كيف أركزتها ولعلها قدت انزائها فاضطربت وتدرجت السلسلة والريشة وانى لاسمع صوتها ... لقد ارتجفت وندت نقطة حبر كبيرة ... على ... على كتاب أترى ... أمام أحد الاعلام الشيوخ ... وإن كنت أذكر لا أذكر إلا انتصاب هذا الانسان الأبيض المزبل في ظلام مقعده صارخاً :

- يا الغباوة ... لقد لوئت الكتاب الأثرى !

وملت إلى المقعد أنفحص فعلتي التاعسة فوجدت أن نقطة الحبر السوداء القائمة قد استقرت على غلاف الكتاب إلى جانب اسمه المذهب، وهامى ذى تفرطح فتشعب إلى ما يشبه المغزل والسنان وأشكال مختلفة، وهنا وهناك انتشرت نقاط صغيرة وتوزعت على صفحته كما تنتثر النجوم في السماء. وإذا ببعض الخطوط تتجمع فتشكل أخذوداً يتحدر فيه الحبر إلى أسفل الصفحة. وتطلعت فإذا أنا محاط بهالة من القراء وكلهم ينظر إلى بعينين متفحصتين لجمدت عروقي وسمرت في مكاني لا تنظر النصيحة وتمت بكلمات اعتذار وأسف كانت لا ترد على ما فات. وأما قارئ الكتاب فلم ينبس ببنت شفة وكأنه قد فقد الحركة وكنا ننظر سوية إلى تشكل البقعة ونرود بأعيننا خطوط جريانها وانثاقها على الصفحة. وكأنه قد عاد - إلى مداركه بعد استقرار البقعة - واستكمال

في النفس شعور الاجلال والتعظيم. وعلق بصري بما يشبه المنبر فتبينت أن هذا المكان يجلس فيه نفر المختار من رواد هذه الدار الذين يتمتعون بألقاب العلم وأوسمة الأندية الأدبية. وينتثر إلى جانبي هذا الممر على صورة عادية سكان المكتبة العلماء، ومن يتأملهم مقوسى الظهور مطرقى الرؤوس حادبين على كتبهم يفترسونها بصمت وسكون رهيبين يتعظم في نفسه تأثير الفكرة في العقل البشرى ومبلغ اجتياحها في رؤوس هؤلاء التي قلت شعورها، ومع ذلك فإن هذا الجمع من القرعان كان لا يعدم بعض من برقت شعورهم

وغالباً ما ينقطع بعض هؤلاء العلماء القراء - عند ما أمر - عن القراءة فيشخصون إلى بعين «تائهة» بلهاء لا تميزني جلباً لا غرافاً في القراءة والتفهم، ولكن هذه الابصار كانت تنحصر عني عندما تلح تقليب وجهي فتصعب العيون وتعود إلى ما كانت عليه وهي أشد ما تكون نشاطاً وشوقاً ونديماً على أن أضاعت الوقت في تفحص هذا الآتي الغريب. ولكنني كنت أحس بخواطر هؤلاء وبهام دائبون فيه. هذا يتندر رفيقه بأنه يدرس منشأ الصناعات والحرف وأصولها، وذلك عاكف على دراسة عصر لويس الثاني عشر، وآخرهمس في أذن رفيقه: أنا أدرس أحوال المرأة المدنية في عصر طياريوس، ويسرع آخر إلى شدة الجمع بأنه يبحث عن ترجمة جديدة لهوراس. وشعرت بأن جميع من في هذا المكان يتندرن بالسؤال: وأنت أيها الحدث ماذا جئت تفعل هنا؟ ألا لا تفكر صفاء هذا المكان الوقور

ماذا جئت أفعل هنا؟ ١ وأسفاه ... يا سادة ... وهل أنا في حاجة إلى أن أقول لكم إن خالي ما قتيه يستحني ويلحف على في انهاء أطروحة الدكتوراه ويضطرني إلى العودة إلى الريف ويبدى سأمه من بطيء الوضع والتأليف، وهاهو ذا صراخه في كتبه إلى: «أقل من النظريات يابني ... أسرع إلى العمل ودع عالم الخيالات والاحلام وما الذي أهاب بك إلى انتقام هذا الموضوع دون سواء ...؟»، والواقع أن موضوع «أطروحتي الرومانية» اتفق خصيصاً لتدبير إقامتي في باريس. «لاتين جونيوس» هذا موضوع أطروحتي - أيها السادة القراء - وانه لموضوع طريف كما ترون ولكنه صعب عسر التوضيح، وليس بينه وبين الحياة العملية أقل صلة أو علاقة وهو يسبب لي تعباً كثيراً ونصباً جماً، وبالبسكم تصورون بعض ما أفاقيه من مشاق الدرس والمراجعات والمطالبات

ومن الصدق والواجب أن أقول إنني كثيراً ما أمزج مع هذه

الملاحظة فاهتز اهتزازة محومة وتارل من جيبه ورقة نشاف وشرع يمتص برجفة عصبية لطوخ الحبر ويعالجها بدقة الممرضة تضمد جراحا . واهتبلت الفرصة لا تقهر إلى الصف الثالث من الذقاع حيث وضع لي غلام المكتبة الكتب التي طلبتها . وجالست أحمل نفسي على الاعتقاد بأنني لو لم أفه بشيء ولو أنني أتوارى عن الأنظار أو أن أخفي رأسي بين يدي كرجل أثقلته جسامته المسؤولية إذن لكفيت هذا الغضب وهذا الصخب ولكن الأمر لم يكن ليتوقف عند هذا الحد . وفوقت البصر قليلا أسترقت تمتة المشهد فإذا بي أبصر هذا الإنسان الأبيض الصغير الذي كان واقفا إلى جانب القيم يكثر من الحركات يديه قد أصبح بين يدي وكان تارة يشير بسبائه إلى الكتاب الملوث وطورا إلى متجها نصف اتجاه ، وحزرت دون ما تعب أو مشقة أنه يقصدني بالكلمات الخشنة التي كان يذروها ، وقد بدا لي بنظرة خاطفة أن قيم المكتبة أشفق على من كلمات . هذا الشيخ الذرب ، فأحمر وجهي خجلا وأجسست بالتحجل يسير في كل جسمي

وهام أولاء ينصفحون دفرا وأظنه البيان الذي يشير إلى قيمة الكتاب وثمانته ومكان الاتباع وانهم ليتأمرؤن على إفراغ المكان مني وتحديد الجزاء والغرامة . . . أو اه . . . يا خال تأهب لنحملها إلى هنا استرسلت في أفكارى المحزنة وما رجعت إلى نفسي إلا وشعرت بأن يداً تربت على كتفي . دون أن أحس بدنو صاحبها ، قال :
— إن الحفاظ يطلبك إليه

فنهضت أثار الغلام وما إن حاذيت القاريء الرهيب الذي كان قد استقر به مكانه حتى لمت بعضي في الوصول إلى سدة القيم الذي بدرني :

— أو أنت الذي لوئت هذا الكتاب ؟ . . .

— نعم ياسيدي

— . . . إنك لم تعتمد فعلتك هذه ؟

— طبعاً لا ، وأنا آسف لوقوع الحادث يا سيدي

— أنت على حق في ندمك وعلى صواب ، لأن هذا الكتاب من أندر الكتب الأثرية الموجودة ، والبقعة أيضا من أغرب البقع ولا أعتقد أنني رأيت بقعة على هذا الشكل .

وأحسست بأنني سأقول له إن الإنسان يلوث كما يشاء ، لولا أنني أمسكت نفسي ، فقال لي :

— اكتب اسمك وصنعك ومكان إقامتك ؟

فكتبت ما يلي :

« فايان جان جاك مويارد محامي ، ٩١ ، شارع رن

— هذا كل شيء ؟ . . .

— نعم هذا كل شيء . مؤثنا وليكنني أعليك بأن « مسير شارنو » مفيظ

جداً ومن المناسب والمستحسن أن تعذر له عن الخطيئة التي اقترقتها .
— مسيو شارنو ؟ . . .

— نعم المسير شارنو عضو المؤسسة العلمية الذي كان يقرأ الكتاب الأثرى .

وتساءلت في نفسي عن هذا القاريء الخطير . . . يا الهي . . .

— أيكرون المسير شارنو هذا الذي تكلم لي عنه المسير فلامارون رئيس لجنة التدقيق في أطروحتي ؟ انهما زميلان إذن أحدهما عضو مجمع العلوم السياسية والمعنوية والثاني عضو معهد دراسة الفوش والفنون الجميلة .

شارنو . . . شارنو . . . أجل ولا يزال جرس هذه الكلمة

يطن في أذني ولا سيما في المرة الأخيرة عند ما قال لي استاذي : انه

(أي شارنو) صديقي الحميم من معهد الفنون والآثار . وأحسست

بأن خطراً يتهددني في شهادتي وامتحاناتي ونزلت إلى أعماق

نفسى أتحسس غوامضها فإذا بي في مأزق حرج ما أهتدي إلى

الخروج منه ، وإن الخوف يتسرب إلى من جهتين اثنتين :

أولاً - لا أعلم ماذا ينتظرني من الجزاء والعقوبة للكلمة التي فاه

بها القيم عند ما استكتبتني اسمي وكنتيتي . وثانياً - أخشى أن يفسد

على هذا العالم « شارنو » عطف استاذي فلامارون لانتهاكي حرمة

الكتاب الذي كان يقرأه ، هذا إذا كان نزقاً غضوباً كما ظهر لي

عند وقوع الحادث المشؤم .

وهل يجب أن أعتذر للسبوشرنو ؟ وأي الاعتذار أقدمها له ؟

وهل أنا لؤمته حتى أسرع إلى الاعتذار ؟ أم ان هذا من حق الكتاب

الذي أحتمل اعتدائي ؟ ان المسير سالم عا لحق بالكتاب وليس

على قبضه أو أثوابه شيء من الحبر أو اللطوخ ، فلماذا إذن يأخذني

بهذه الحدة وهذا الغضب ؟ . . . ولكنني سأقول له :

— سيدي أنا آسف جداً لأنني عكرت عليك الصفو في أبحاثك

العلمية . ان كلمة أبحاثك العلمية ستتملق ولا ريب أثرته واحساسه

وستكون مخدراً قويا لأعصابه المتوترة . . .

واستجمعت نفسي للنهوض وإذا بالمسير شارنو يقبل بهزة

عصبية وبغضب مازال يشتد منذ وقوع الحادثة وترسم على وجهه

أمائر الاستياء الشديد من تقلص في الشفاء إلى سهوم في الوجه

والنظر وكان يتأبط بحفظه وذراعه تضطرب في امساكها إلى

خاصرته . وحدجني بنظرة قاسية . . . وتابع خطاه .

حسناً يا مسيو شارنو . . . إن رجلاً غاضباً في حالته التي

أشد لا يمكنه استساغة المعاذير ولكنني سأعتذر لك فيما لو تقابلنا

إذا كان للأيام أن تضعنا وجها لوجه . . .

احمد المحمود

(طرطوس)